العلاقة بين الفلسفة والدين من حيث المنهج

قد يظهر للوهلة الأولى التفاق بين منهج الفلسفة ومنهج الدين، إذ إن كلا منهما يستخدم المنطق والعقل في الفهم والتفسير والتأويل والرد على الخصوم. كما أن الدين يدعو في الكثير من آياته إلى التدبر، واستعمال العقل، وممارسة فعل التعقل في كل ما خلق الله تعالى. وإن نور الوحي القرآني والتشريع الرباني لا يطمس نور العقل أبدا، بل يباركه ويزكيه ويقويه، ويعطي للعقل قدرا عجيبا ومكانة كبيرة، فلقد جعل التشريع القرآني العقل مناط التكليف.

لكن بإمعان النظر يمكن الوقوف على اختلافات شتى بين منهج الفلسفة ومنهج الدين، فالدين يقوم على الإيمان، أي على القبول والتسليم بحقائق معينة تسلي ما، والإذعان لها إذعان ا تاما، في حين أن الفلسفة بطبيعتها القائمة على ما يفكر فيه عقل الإنسان، وعلى ما تقوده إليه تأملاته، وعلى الحجج العقلية المقنعة التي تجعل هذا الفيلسوف أو ذاك يؤمن بحقيقة معينة، ترفض ذلك التسليم والإذعان .

إذا يختلف المنهج في الفلسفة عنه في الدين، فالمنهج الفلسفي يلتزم فيه الإنسان بالنظر العقلي الكلي المجرد إلى الوجود وإلى علاقة الإنسان به، ويبعد عن النظرة الدارجة، ولا يقيد نفسه بميدان بحث خاص كما يفعل رجال العلم، ولا يبدأ من تصور معين للكون كما هو الحال عند رجال الدين. فإذا كان المنهج في الدين هو الطريقة المنظمة المطردة التي يتم فيها استنباط الأفعال الضرورية في العبادات والمعاملات وسائر الأحكام الدينية لكل مواقف الحياة حسب النصوص الدينية التي تحكم هذه العقيدة، فإن المنهج في الفلسفة يتمرد على كل سلطة سوى سلطة العقل في ذاته، إذ ينتصر الفيلسوف للعقل دائما، فالعقل عنده هو أداة مكتفية بنفسها معرفيا، يهتدي بها الإنسان إلى الحقائق اهتداء الساري في الظلمة بالنور الذي يشعه من داخله، وهو ليس في حاجة إلى توجيه أو إرشاد من خارجه، فهو يمتلك القدرة على التعرف والكشف عن الحقائق بمقتضى طبعه الذي فطر عليه، بعيدا عن أي وصاية من الخارج، أو أي عون يزوده به النقل، ولذلك فهو يخضع كل شيء للنقاس.

والجدل ولا يعتقد بأي شيء إلا إذا امتلك الدليل العقلي عليه كذلك يمكننا القول بأنه إذا كان المنهج في الدين هو منهج واحد قائم على التسليم والقبول بمجموعة الحقائق التي يكون الدين مصدرها الأساسي، سواء أكانت هذه الحقائق منزلة فعلا من عند الله عن طريق الوحي الإلهي إلى الرسل والأنبياء كما في الديانات السماوية، أم كانت عند أصحاب الديانات الأخرى من مصدر وضعي بشري له مكانته المقدسة عند أصحاب هذا الدين، فإن مناهج الفلسفة متعددة. فمن الفلاسفة من يقتصر دور التساؤل عنده على إطلاق قواه لتقرير إجابته، بينما هناك منهم من يستمر التساؤل عندهم طوال الرحلة الفلسفية، ومنهم من ينطلق من الأسئلة النظرية المجردة مباشرة، من قبيل: ما الوجود؟ ما المعرفة؟ ومنهم من ينطلق من إشكاليات تاريخية محددة: كمعارضة مذهب آخر، أو الوقوف في وجه ثقافة مغايرة، أو الوعي التاريخي ببناء أسس ثقافة مغايرة، أو الوعي التاريخي ببناء أسس ثقافة جديدة وانطلاقاتها، أو وضع المقدمات الضرورية لبناء أمة أو دولة، إلى غير ذلك. ومنهم من يبدأ بتقرير مبادئ عامة يأخذها عن غيره أو يصل إليها بنفسه ثم يأخذ في تطبيقها على ميادين خاصة وعلى مسائل جزئية، وينتهي ابتداء من ذلك إلى مبادئ عامة، ومنهم من يميل إلى بناء نسق

أو نظام مفصل متسق شامل تكون العلاقة فيه بين جوانبه المختلفة علاقة النتائج المتناسبة ابتداء من عدد من المبادئ الأولى الأساسية. بينما منهم من يميل إلى تحليل المسائل إلى عناصرها، كل مسألة مأخوذة على حدة، فتكون آراؤه في مجموعها كالوحدات المتجاورة لا كالبناء المرتفع الذي تعتمد طبقاته بعضها على بعض وعلى أسس مشتركة بينها جميعا أي إنه إذا كان منهج الدين واحدا فإن مناهج الفلسفة متعددة، وما تعددت مناهج الفلسفة إل لختلاف رؤى الفلاسفة المنهجية، وعدم اتفاقهم على منهج واحد كما في العلوم الطبيعية، وتنوع المشكلات الفلسفية، واختلاف الأزمنة والمواقف الحياتية للمشكلة الواحدة.

ولذلك نجد أن العديد من الفلاسفة عادة ما يقترحون مناهج مختلفة يرونها هي الأفضل من غيرها، إذا يقترح ديكارت منهج الستنباط العقلي، وهيجل الجدل الديالكتيكي، وهوسرل المنهج الفينومينولوجي، ودريدا المنهج التفكيكي، وشترواس المنهج البنيوي، إلخ.

ولذلك فإن من يقول: إن المفكر الديني مثله مثل الفيلسوف يستخدم المنطق والعقل والأساليب البرهانية في الفهم والاستنباط والتفسير ومجادلة المخالفين، مرتئيا في ذلك بأن رجل الدين يستخدم المنهج الفلسفي تماما مثل الفيلسوف، فإنه يمكن الرد عليه بأن رجل الدين هنا يتوسل بالمنهج الفلسفي لكي يقوى موقفه عن طريق إضافة الأدلة العقلية لما يؤمن به أصلا ، ويقبله مع سائر المؤمنين فقط ولا يتعدى ذلك. فهو ل يستمر مع المنهج العقلي إلى نهايته، بدليل إنه إذا ما ظهر أي تعارض أمامه بين الحقيقة الدينية والحقيقة العقلية غلب الأولى على الثانية، لأن العقل عند رجال الدين قاصر عن إدراك الحقائق الكبرى، وهو بلا وحي عاجز عن التعرف على توحيد الألوهية، أو على الأسماء والصفات، أو على الجنة والنار، أو على الأنبياء والمرسلين في مختلف الحقب والعصور. فللعقل حدوده التي لا يجب عليه أن يتعداها حتى ليقع صاحبه في الغي والضلال.

وفي الحقيقة أراد ديكارت ١٥٩٦(R. Descartes ـ ١٦٥٠) تطبيق منهجه العقلي على حقائق الدين، فأيقن أنه سيكون في مرمى محاكم التفتيش وغضب الكنيسة، فأعلن أنه لن يطبق منهجه على الدين، فمنهجه قاصر فقط على مجال الإبستمولوجيا دون غيرها من دين أو سياسة أو عادات وأخلاق وتقاليد المجتمع. في حين طبق سبينوزا منهجه العقلي على الدين في كتابه «رسالة في اللاهوت والسياسة» فتم إخراجه عن زمرة اليهود والمسيحيين البروتستانت، إذ أعلن الزعماء فصله من الجماعة وحصلوا على أمر من السلطة المدنية بإقصائه عن المدينة، وشاركهم في ذلك البروتستانت الذين كانوا يرون فيه رجلا خطرا على الدين. وهذا ما يفسر لنا خطورة الخلط بين مناهج الدين ومناهج الفلسفة، ولا يعني هذا أننا ضد استخدام المناهج الفلسفية العقلية في الدين لتمييز ما هو مقدس ديني أصيل وما هو مدنس ومزيف

ودخيل، ولكن هذا ما يفسر جوهر الصراع بين الفلسفة والدين على مر العصور، إذ ينتهي المنهج الفلسفي في الغالب إلى نهايا وتفسيرات ل يرضى عنها رجل الدين ول ينتهي إليها منهجهم، وم ثم ينشب الصراع بينهما، فيتمسك رجل الدين بحقيقته الإلهية اليقيني التي تستمد قوتها من المقدس والمتعالي، بينما يتمسك الفيلسوف بقوة حجته ومرجعيتها العقلية البرهانية. فيتحول الصراع من مقارعة الرأي بالرأي والحجة بالحجة إلى مقابلة الرأي بالبندقية والحجةبالقنبلة. وهذا هو ما يعكس محن الفلاسفة في جل العصور.